معارف
ISSN 1112-7007
EISSN 6804 -2600
المجلد 19/ العدد 1 (جوان 2024): ص.ص: 434-449

تمظهرات البنية السردية في المقامة الإبراهيمية للبشير بوكثير

The manifestations of the narrative instruction in the Ibrahimmic maqamat of El Bachir Bouktir

عبد الرحيم بن فرج *

جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعريريج، مخبر الدّراسات اللّغوية والأدبية المعاصرة، الجزائر، abderrahim.benfredj@univ-bba.dz

تاريخ الاستلام: 2024/01/28؛ تاريخ القبول: 2024/06/03؛ تاريخ النشر: 2024/06/15

ملخص:

تعتبر البنية السّردية مبحثا هامّا من مباحث الدّرس النّقديّ، ومن أبرز مفاهيمه التي تمتّ بصلة للنص السردي، وقد انتشر توظيف هذه التقنية ولا سيما في الرّواية العربية، ولكن ليس غريبا أن نجد بعض الأجناس الأدبية الأخرى قد اعتمدتها كالمقامة الجزائرية مثلا.

وهو ما حاولت إبرازه في هذه الورقة العلمية، بالبحث في آليات اشتغال البنية السّردية وتبيين دلالتها، وانتهاءً بالوقوف عند تجلياتها في المقامة الإبراهيمية للبشير بوكثير، وذلك بهدف الوصول إلى جماليات هذه المقامة.

كلمات مفتاحية: البنية السّردية؛ التمظهرات؛ آليات الاشتغال؛ المقامة الإبراهيمية.

Abstract:

The narrative instruction is an important research in the researches of the critical stady. And it is the only notion that is familiar which relates to the narrative text. Moreover, the implementation of this technique was expanded in all the literary fiction novels especially in the arabic novel. Although it's not strange to find some of the literary geners those have already adopted as well as in the Algerian maqamat.

It's all what I tried to show in this scientific paper. To make a research about the mechanisms of switching the narrative instruction

* المؤلف المرسل.

and showing its meaning. To be concluded in the bristling of its appearances in the Ibrahimmic maqamat for reaching to the aesthetics of this maqamat.

Keywords: The narrative instruction; the manifestations; the mechanisms of switching; the Ibrahimmic maqamat.

المقدمة:

يعتبر الأدب الجزائري واحدا من الآداب التي حظيت بالقبول والانتشار في أوساط الباحثين والنّقاد، ويرجع هذا الانتشار إلى الأدباء أنفسهم من خلال ما قدّموه من أعمال أدبية (سردية وشعرية) حتّى يواكبوا إخوانهم المغاربة والمشارقة إبداعا وإنتاجا، فخاضوا غمار القصّ والشّعر والمسرح وكتبوا في فنّ المقامة كذلك.

وبهذا يعتبر فنّ المقامة في الأدب الجزائري، جنسا أدبيا كالأجناس الأخرى التي تتميّز بالفرادة الفنية، ولكن هذا الفنّ لم يبقه المبدع الجزائري على وتيرته التي ظهر بها خلال العصر العبّاسي مع بديع الزمان الهمذاني، ولكن أصبح يتميّز بطابع التّجريب من خلال إصباغه بنكهة اللّهجات المختلفة التي زادته رونقا وجمالية لغوية، إضافة إلى المزج بين ما هو واقعي وخيالي لإضفاء عنصر العجائبي والغرائبي حتى لا يشعر القارئ وكأنّه أمام نصّ جاف لا يحمل عناصر الفنّ والشّعرية، وهو ما نلاحظه في مقامات المعلم البشير بوكثير التي عنونها (مقامات بشائرية).

وهذا الانفتاح الواسع الذي عرفته (مقامات بشائرية) أخذ بها إلى ولوج عالم السّاحة النّقدية لتصبح عيّنة أدبية هامّة من أجل الدّراسة والتّحليل، وهذا بهدف المزاوجة بين مقصدية المؤلّف ونتائج القارئ والناقد المحلّل، ومن بين هذه الدّراسات النّقدية والسّردية نجد البنية السردية التي تتّخذ من الخطاب أو النّص الأدبي وسيلة من أجل البحث عن تلك القواعد والقوانين التي تضبط بناه، واكتشاف مواطن الجمال الذي يميّزه فيما بعد، وهذا ما أدّى بنا إلى تبنّي إشكالية جوهرية مفادها: كيف انبنت المقامة الإبراهيمية سرديا؟ وما مدى استيعابها لآليات المقاربة السّردية المتعارف عليها؟

إنّ هذه الإشكالية تأخذ بأيدينا. لا محالة. إلى إدراج بعض الفرضيات، والتي من خلالها تتّضح الرّؤية لدى متلقي هذا البحث وهي:

. هل بإمكان المقامة الجزائرية الحديثة أن تنبني وفق الآليات السّردية؟

.أليس باستطاعة صاحب المقامة الإبراهيمية أن يسير على خطى السّردانيين؟

من خلال هذه الفرضيات نصبو في بحثنا هذا إلى الوصول إلى مجموعة من الأهداف:

.التّعرّف على الطّريقة التي اشتغلت عليها المقاربة السّردية في المقامة الإبراهيمية.

.كيفية معالجة الوظيفة الجمالية النّابعة من صميم المقاربة السّردية في المتن الحكائي للمقامة، ومدى تجاوب القارئ على اختلاف أنواعه مع هذه المقاربة.

ولهذا ارتأينا بأن تكون المقاربة السّردية هي الأنسب لعرض هذه الورقة البحثية، من خلال عرض بعض المقاطع السّردية وتبيان وظيفتها الجمالية وما توحي إليه من دلالات مكثّفة ورامزة وهادفة، وكان هذا عبر منهجية احتوت بين طيّاتها فكرة عرض آليات اشتغال البنية السّردية داخل المقامة الإبراهيمية انطلاقا من الشّخصية وانتهاءً عند الفضاء الزمكاني ومرورا بالأحداث التي قامت عليها.

آليات اشتغال البنية السردية في المقامة الإبراهيمية:

بنية الشخصية:

إنّ الشّخصية عند فيليب هامون مشابهة للعلامة اللسانية، وفي هذا الصّدد يرى بأنّ اللّسانيات هي المنبع الرئيسي لتحديد الشخصية ودراستها فيقول: «فقد كانت اللسانيات هي المنبع الذي غرفت منه جل المفاهيم المستعملة في مقاربة وتحديد نمط اشتغال الشخصية: سواء فيما تعلق بتحديد مكونات النص السردي أو فيما يتعلق بتحديد مستويات التحليل، وهكذا وعوض أن تكون مقولة الشخصية مقولة بسيكولوجية تحيل على كائن حي يمكن التأكد من وجوده في الواقع، وعوض أن تكون مؤنسنة (قصر الشخصيات على الكائنات الحية الإنسانية خصوصا)، وعوض أن تكون مقولة خاصة بالأدب وحده فإن هذه المقولة على العكس من ذلك، علامة ويجري عليها ما يجري على العلامة، إن وظيفتها وظيفة اختلافية، إنها علامة فارغة، أي بياض دلالي لا قيمة لها إلا من خلال انتظامها داخل نسق محدّد»[1]، فهو يرى بأنّ تحديد الشّخصية يكون من طرف القارئ أقرب إليه من طرف النّص في حدّ ذاته، فالقارئ يحدّد الشخصية وسماتها ووظائفها من خلال مضاعفته لفعل القراءة لذلك العمل الأدبي، فهي فراغ دلالي يملأ بفعل القراءة، فالكاتب يبني نصّه الأدبي وفق معايير

(1).فيليب هامون، سيميولوجية الشّخصيات الروائية، تر: السعيد بن كراد، (دط)، دار الكلام، الرباط، المغرب، 1990، ص08.

خاصّة والقارئ يفكّك هذا البناء ويعيد بناءه من جديد، وهو ما يشبه التّقطيعات الحاصلة في اللّسانيات كتقطيع الجمل إلى مورفيمات وفونيمات.

لقد تضمّنت هذه المقامة شخصيتين مختلفتين هما: البشير السّحمداني والشّيخ، فبالرّغم من الاختلاف الحاصل بينهما إلا أنه يوجد تماهيا من خلال المحاورة التي دارت بينهما.

أوّلا: البشير السّحمداني: وهي شخصية الرّاوي ذاته، وهو يمثّل الزّائر المتجوّل الذي شدّه الحنين إلى مرابع قبيلة العلّامة محمّد البشير الإبراهيمي، وكانت كلّ الصّفات المنسوبة إليه أنّه يتجوّل ويتنزه من مكان إلى آخر، وهذا ما يحيلنا إلى أنّه ذو انتماء حضري لا بدوي، ومثقّف كذلك، ويظهر هذا من خلال المستوى اللّغوي الذي منحه إياه الأديب، ولكن بالرّغم من هذا كلّه إلا أنه يبقى مشدود الانتباه لما يقوله له الشّيخ حول الإبراهيمي، ومن المقاطع التي نسبت لهذه الشّخصية والتي كانت على لسانها نذكر منها: «قلت: يا شيخي الودود، ذكراه دوما تعود، بالخير والبشر والسّعود، فترسم على الشّفاه البسمة واليمن والجود...»[1]، فهو هنا يرسم الملامح التي كان يتميّز بها الإبراهيمي في حياته العادية، وهذه الصّفات هي ما جعلت الرّاوي يتعمّق في الوصف والتّغزّل بهذه القامة العلمية والدّينية الشامخة، وكذلك مقطع آخر يقول فيه: «قلت: إيه والله يا جد، لن أخون العهد، حتى أوسّد في اللّحد، فلغة الضاد تسري في قلبي ودمي كما يجري على قرطاسي المِداد، ولو قالوا متخلّف يرتاد، دكاكين الورّاقين في عصر "الآيباد"»[2]، وفي هذا المقطع يقطع عهده ووفاءه للغة العربية التي لها شأن عظيم في الوجود البشري عامّة والإسلامي خاصة، فهي حافظة القرءان الكريم وحاملة لوائه، والباقية عبر الأزمنة والعصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذه الشّخصية لم تحظَ بالكلام والتحدّث كثيرا، كونها شخصية مستمعة لما يقال وفقط، فهي تفكّر في أن تجمع بعض المعلومات الخاصة بالإبراهيمي بغية بناء نص مقامي وسردي حول هذه الشخصية الغنية عن التعريف.

ثانيا: الشّيخ الكبير: تمثّل هذه الشّخصية دور المتحاوَر معه من قِبل الرّاوي، فقد كانت هي الموجِّه ورفيقا للرّحلة التي قام بها البشير في مرابع منطقة أولاد ابراهم، فتتّصف بالحكمة والفطنة والدّهاء، كما تعتبر مسجّلا للتّاريخ العريق الذي عاشته وعايشته، فهي على دراية تامة بما قام به البشير الإبراهيمي داخل الجزائر وخارجها، وهذا ما يحيلنا إلى القول: بأنها شخصية ذات انتماء تاريخي وبدوي بامتياز، فيمكن أن تكون هذه الشخصية من المقرّبين للعلامة الإبراهيمي أو من تلاميذه الذين درسوا على يده في منطقة أولاد ابراهم قبل مغادرته منها، وقد

(1). البشير بوكثير، مقامات بشائرية، (دط)، دار خيال للنّشر والتّرجمة، برج بوعريريج، الجزائر، 2022، ص19

(2). المصدر نفسه، ص21

حظيت بالحديث أكثر من شخصية البشير، وذلك راجع إلى أنّها هي مصدر المعلومات ومنبعها، ومن ذلك نذكر: «قال: اسمع يا ولدي الأنيق، والحسّاس الرّقيق: هو الشّيخ الفقيه، والعلامة النبيه، لا تكفيه مقامة، ولا تضاهيه في الجزائر قامة، فهو في خدّها خانة وخامة وشامة، هو محمّد البشير، العالم الكبير...»[1]، فالشّيخ هنا يصف العلامة الفذّ الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي الذي كان له صيتا وجاها في المجالات المختلفة (الدّينيّة، التّعليميّة، السّياسيّة...)، فإذا كان هو من قال: "بأنّ القضيّة الفلسطينية لا تنال بالشّعريات والخطابات"، فنحن نقول: بأنّ الإبراهيمي لا يوصف في مقامات ولا جلسات، فكلّما اغترفت غرفة من علمه تعطّشت للمزيد، ويواصل الشّيخ في كلامه إلى أن يقول: «يا ولدي البشير... إنّ جدّك "البشير" هو الرّجل الرّشيد، والعقد الفريد، والبلبل الغرّيد، والفكر السّديد، والمربي الفذ الصّنديد، ومسطّر المجد التّليد، لأمة لن تبيد، بعزم يفلّ الحديد، وحزم يقهر الجبان الرّعديد»[2]، وهنا يواصل في وصفه لهذا العلامة الفذ وتغزّله بصفاته التي أبهرت العالم بالرّغم من بساطة عيشه، وفي موضع آخر قال: «يا ولدي البشير... هل يوجد أشجع ممّن عمل في أشرف ميدان، وذاد عن رمة التّعليم الحرّ والإصلاح بأقوى سلاح وأمضى سنان؟ وهو ميدان بناء الإنسان، وتهذيب القرائح والأذهان»[3]، وجاء هذا المقطع كحوصلة لما ورد في المقطعين السّابقين، بحيث ختمه بسؤال مفاده: ما الميدان الذي اشتغل عليه الإبراهيمي بكثرة؟ ليجيب عليه في الأخير ويقول: بأنّه ميدان بناء الإنسان بناءً قويما كتهذيب القرائح والأذهان.

وهذا ما جعلها (شخصية الشّيخ) تفكر بأن تمنح كل ما عندها وما تخزّنه ذاكرتها للشخصية المتحاور معها، ومن هنا تتبدّى شعرية هتين الشّخصيتين من خلال توظيفهما في هذه المقامة، فالحوار الذي كان طاغيا بينهما يمكّن القارئ من التّعرّف أكثر فأكثر على شخصية الإبراهيميّ، فصحيح أنّهما مجرّد شخصيتين من ورق إلا أنّهما قاما بدور مهمّ داخل المتن الحكائي.

بنية الحدث:

يذهب عبد الكريم جدري إلى أنّ الحدث «مجموعة من المواقف والأوضاع الدرامية التي تشكّل الوقائع التّأسيسية للحدث المسرحي من خلال ترابطها العضوي بالسببية وتطوّر الأحداث في المسرحية مقترن بما يصدر من الأفعال وردودها لدى الشّخصيات، في تعاملها مع الموضوع بالتصوير الحي للحالات، والأوضاع السيكولوجية وما تكون عليه

(1). البشير بوكثير، مقامات بشائرية، مصدر سابق، ص15

(2). المصدر نفسه، ص18

(3). المصدر نفسه، ص20

الشّخصيات...»[1]، ومن هذا المنطلق يعمل الحدث على سير الأقوال والأفعال الصّادرة عن الشّخصيات في زمان ومكان معيّنين يحدّدهما الرّاوي أو السّارد، وإن كان عبد الكريم جدري قد أشار إلى الحدث المسرحي، فهو لا يختلف عن الحدث القصصي في المقامة.

وتعتبر الأحداث سمة جوهرية تقوم عليها الأعمال الأدبية المختلفة، وبخاصة السّردية منها، ولتحديد شعرية الأحداث التي قامت عليها (المقامة الإبراهيمية) سنعتمد على الجدول التّالي:

المقامة الإبراهيمية		
وضعية الانطلاق	وضعية الإنجاز	وضعية الختام
تبدأ المقامة من الشّوق والحنين اللذان تملّكا الرّاوي بغية زيارة مرابع الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي.	الالتقاء مع الشّيخ الكبير والتّنزه والتّحاور معه في قبيلة الخرزة القبلية وبالتّحديد في قرية سيدي عبد الله.	حلول الظّلام وسدول أستار اللّيل، ممّا جعل الرّاوي يغادر هذه الأطلال البهيّة وهو حزين، ليرجع بعد ذلك إلى بيته.

جدول يوضّح كيفية تطوّر أحداث المقامة الإبراهيمية

لقد استهلّ الأديب هذه المقامة بالشّوق والحنين الذي تملّك الرّاوي المتمثّل في البشير السّيحمداني فقال على لسانه: «شدّني الحنين إلى قبيلة شيخي الأمين، وبعد مسيرة نصف ساعة، كانت نفسي تتوق ملتاعة، لرؤية الشّمس اللمّاعة، والقريحة المنصاعة، بل لمعدن الوضاءة والملاحة، وملك البلاغة والفصاحة»[2]، ليصل بعد ذلك إلى قبيلة الخرزة القبلية وبالتّحديد إلى قرية سيدي عبد الله أين ولد وترعرع العلامة طالب محمّد البشير الإبراهيمي، وهي مهد الفقه والعلم وسَمْتِ العمائم، ومحطّمة أسوار البدع والتّمائم كما قال عنها راوي المقامة.

وبعد بضعة أمتار من المسير التقى بشيخ كبير، وبقي يتنزّه معه في مرابع أولاد ابراهم، إلى أن وصلا إلى إحدى المروج، أين جلسا هناك وبدأت القصص تُروى عن مسيرة الرّجل الفذ الإبراهيمي، وعن سيرته الدّينية والعلمية منذ أن كان طفلا متعلّما إلى أن أصبح قامة علمية لها صيتها في الجزائر وخارجها من البلدان العربية وغيرها من دول العالم، فراح الشّيخ يسرد ذلك ويقول: «هو محمّد البشير، العالم الكبير، والجهبذ النّحرير، والأديب اللّبيب، والشّاعر

(1). عبد الكريم جدري، التّقنية المسرحية، ط2، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002، ص42 .
(2). البشير بوكثير، مقامات بشائرية، مصدر سابق، ص14.

الأريب... يعود أصله إلى الأشراف الأدارسة، ذوي الأطلال الباقية لا الدّارسة، الضّاحكة لا العابسة... لقد عاش في هذا البيت، على قنديل الزّيت، لا يؤمن بـ"لو" ولا بـ"ليت"، علّمه عمّه "محمّد المكّي" الأصول والمتون، ولقّنه شتّى ضروب العلوم والفنون، فأتى بما لم يأت به الأوّلون، فقرّت به العيون، ونام ملء الجفون»[1]، ثمّ قام في سرد الرّحلات التي قام بها الإبراهيميّ في حياته بدءا من تونس ومصر إلى دمشق وضواحيها.

وبعدها بدأ يفصّل في كيفية تأسيس جمعية العلماء المسلمين التي اعتبروها خير جمعية أخرجت للنّاس، بل هي الرّوح والأنفاس، والسّوس والآس، كما وصفها الشّيخ، فكان لها دورها الفعّال في توعية الشّعب الجزائري وإيقاظه من سباته، وإخراجه من الغيّ إلى النّور، والتي كان رائدها قاهر باريس، وخير الأنيس عبد الحميد بن باديس، والعلامة الألمعي، والمفوّه السّميذعي الإبراهيمي، الذي فاق الأصمعيّ في غريب اللّغة والأنساب، وبن ساعدة في البلاغة وفصل الخطاب.

وبعد هذه الأوصاف التي قدّمها للرّاوي، راح يذكّره بالخطب التي قالها الإبراهيمي، وكانت أولى الخطب التي ذكرها هي تلك التي ناجى فيها الإبراهيمي وطنه الجزائر الذي يراه مركزا منه الانطلاقة وإليه العودة، ثمّ خطبة فلسطين التي قال عنها: بأنّها لا تنال بالخطابات والشّعريات، وإنّما بصدم ثابت بسيّار، وصدم تيار بتيار، وبعدها خطبة الشّباب الذي تمثّله بانيا للوطنية على خمس، كما بُني الإسلام على خمس(...) وفي الأخير، ولما أرخى اللّيل سدوله، وجرّ ذيوله، غادر الرّاوي الخرزة القبلية وهو متحسر على فراق هذه الأطلال البهيّة، التي ضمّت نفسا زكيّة، وقال بأنّها ستبقى في ذاكرته دوما حيّة.

بنية الزمن:

يذهب عبد الملك مرتاض إلى أنّ «الزمن مظهر وهمي يزمن الأحياء والأشياء فتتأثّر بمُضيّه الوهمي غير المرئي، غير المحسوس، والزمن كالأكسيجين يعايشنا في كل لحظة من حياتنا، وفي كلّ حركة من حركاتنا، غير أنّنا لا نحسّ به ولا نستطيع أن نتلمّسه ولا أن نراه ولا أن نسمع حركته الوهمية على كلّ حال»[2]، وبهذا يغدو الزمن شيئا مهما في حياتنا، صحيح أنّنا لا نراه، ولكننا نحسّ به معنا، ونلمسه في كبر الأشخاص وتقدّمهم في السّن من خلال

(1). المصدر نفسه، الصفحة نفسها

(2). عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، ط1، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص(172.173)

شيب شعر الرأس، أو عند الطّفل الذي يحبو على أربعة ثمّ يمشي على اثنين.

لقد قام الباحثون والمتخصّصون في الدّراسات السّردية إلى تقسيم الزمن إلى ثلاثة محاور كبرى هي:

أوّلا: التّرتيب: ويعني «دراسة الترتيب الزمني لحكاية ما، مُقارِنة نظام ترتيب الأحداث أو المقاطع الزمنية في الخطاب السّردي بنظام تتابع الأحداث أو المقاطع الزمنية نفسها في القصة»[1]، وحينما لا يتطابق نظام السرد مع نظام القصة، ففي هذه الحالة تكون هناك مفارقات زمنية، والمفارقة إما أن تكون استرجاعا لأحداث ماضية أو استباقا لأحداث لاحقة[2]، وهذه المفارقات تتمثّل في:

1: الاسترجاع: وهنا يأتي جنيت ليقول: «وندلّ بمصطلح استرجاع على كل ذِكر لاحق لحدث سابق للنقطة التي نحن فيها من القصة»[3]، فهو استرجاع أحداث ماضية في اللّحظة الرّاهنة، ويعرف كذلك بمسمى (الاستحضار) بحيث «يُعمد إلى توظيف الحكي في لحظة ما هي الحاضر والرجوع به إلى الماضي من استحضار أحداث قد تكون خارج زمن الحكي»[4]، وهكذا يكون استحضار الأحداث الماضية ودمجها مع الأحداث الراهنة وفق وتيرة زمنية معيّنة.

واعتُمدت هذه التّقنية في (المقامة الإبراهيمية) حينما قال الرّاوي على لسان الشّيخ: «كان أسدا هصورا، وهزبرا على الأهوال جَسورا... حاز التّقدير والوقار... هو من وشم على جيد الجزائر الحب الصادق، ورسم على هامتها الوفاء الخارق...»[5]، فعاد بذاكرته إلى الماضي الذي كان فيه الإبراهيمي يقوم بما وسع من الإصلاح، وما وجب من حقذ القيام، وما سنحت الفرص في مواجهة العدوّ الغاشم بالقلم الذي كانت العيون تنزف من خلاله الدم بدل الدمع.

2: الاستباق: يعرّف جنيت الاستباق بقوله: «فندلّ بمصطلح استباق على كل حركة سردية تقوم على أن يروَى حدث لاحق أو يذكر مقدَّما»[6]، ويطلق عليه كذلك مسمى (الاستشراف) باعتبار الاستشراف «رؤيا جامحة في ثنايا المستقبل، رؤيا فكرية وأدبية

(1). جيرار جنيت، خطاب الحكاية (بحث في المنهج)، تر: محمد معتصم وآخرون، ط2، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997، ص46.
(2). حميد لحميداني، بنية النّص السردي من منظور النقد الأدبي، ط2، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2000، ص74
(3). جيرار جنيت، خطاب الحكاية، مرجع سابق، ص51
(4). الشريف حبيلة، بنية الخطاب الروائي (دراسة في رواية نجيب الكيلاني)، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010، ص123
(5). البشير بوكثير، مقامات بشائرية، مصدر سابق، ص18
(6). الشريف حبيلة، بنية الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص123

وإبداعية تقفز فوق شرفات متعدّدة... فالاستشراف قفزة فوق المسلّمات السّائدة، قفزة تكشفها رؤيا الأديب الفنان، وترصدها قبل وقوعها لتكسب ضوءا فوق جسد الأحداث والتحوّلات»[1]، وهكذا يكون الاستخدام نفسه حتى وإن اختلفت المسمّيات.

لقد ظهرت هذه التقنية من تقنيات المفارقات الزمنية في (المقامة الإبراهيمية) في مقطع واحد فقط، وذلك عندما تعرّض الشيخ لما قاله الإبراهيمي حينما تمثّل الشباب وقال عنهم: «أتمثّله حلف عمل، لا حلف بطالة، وحلس معمل، لا حلس مقهى... أتمثّله بانيا للوطنية على خمس كما بني الإسلام على خمس... أتمثله مقبلا على العلم والمعرفة ليعمل الخير والنفع... أتمثّله محمديّ الشمائل، غير صخاب ولا عياب ولا مغتاب ولا سبّاب...»[2]، فهو يستشرف المستقبل الذي سيبنيه جيل الجزائر الجديدة، الجيل الصاعد الذي بإمكانه أن يصنع المستحيلات، ويعيد بناء حضارة جزائرية عمادها الدين الإسلامي وأساسها اللغة العربية، يومه مزهر، وليله مقمر.

ثانيا: المدّة الزمنية: هي التفاوت البيني الذي يمكن قياسه بين زمن القصة وزمن السرد*، فليس هناك قانون واضح يمكّن من دراسة هذا المشكل، إذ يتولّد اقتناع ما لدى القارئ بأنّ هذا الحدث استغرق مدة زمنية تتناسب مع طوله الطبيعي أو لا تتناسب، وذلك بغض النظر عن عدد الصفحات التي تمّ عرضه فيها من طرف الكاتب[3]، وتنقسم هذه المدة إلى:

1: تسريع السّرد: بحيث يحدث تسريع إيقاع السّرد حين يلجأ السارد إلى تلخيص وقائع وأحداث فلا يذكر عنها إلا القليل، أو حين يقوم بحذف مراحل زمنية من السّرد فلا يذكر ما حدث فيها مطلقا[4].

أ: الخلاصة: تُعرف على أنّها «سرد في بضع فقرات أو بضع صفحات لعدة أيام أو شهور

(1). عبد الرحمن العكيمي، الاستشراف في النص (دراسة نقدية في استشراف المستقبل)، ط1، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2010، ص17-18.

(2). البشير بوكثير، مقامات بشائرية، مصدر سابق، ص21

*. **زمن القصة:** هو الزمن التخييلي الذي تستغرقه الواقعة الفعلية، وبصورة أكثر شمولية الذي يستغرقه الحدث كله، وأما **زمن السرد (الخطاب):** هو الوقت الذي يستغرقه القارئ لقراءة القطعة في المتوسط أو بشمولية أكثر، فإن زمن الخطاب لكل النص يمكن أن يقاس بعدد الكلمات، الأسطر أو الصفحات للنص. يان مانفريد، علم السرد (مدخل إلى نظرية السرد)، تر: أماني بورحمة، ط1، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، 2011، ص(118.119)

(3). حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، مرجع سابق، ص76

(4). محمد بوعزة، تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010، ص93

أو سنوات من الوجود دون تفاصيل أعمال وأقوال»[1]، فيلجأ إليها السارد لاختزال مدّة من الزمن في بضع صفحات أو أقل.

ولقد كان لهذه التقنية حضورها الواضح والجلي في (المقامة الإبراهيمية)، فنجده يلخّص مسيرة الإبراهيمي ويقول: «علّمه عمّه "محمد المكي" الأصول والمتون، بعدها يمّم شطر تونس الخضراء وتفيّأ ظلال الزيتونة الميمونة... ثم غادر إلى مصر المحروسة، في رحلة قصيرة مدروسة... بعدها غادر إلى الحجاز، مهبط الوحي ومصدر الإعجاز... ولمّا نادى المنادي، حيّ على الجهاد، لبّى النداء، وعاد للجزائر الجريحة الولهاء، وأسس مع أخيه جمعية العلماء، لإحياء ماض تليد، وتاريخ مجيد، حاول طمسه الاستعمار الرّعديد»[2]، فلخّص الرّحلة التي قام بها الإبراهيمي في عدّة شهور وسنوات في فقرات صغيرة من ناحية الحجم، لكنّها بيّنت الهدف المنشود الذي ارتحل من خلاله هذا الرّجل المصلح، فكانت جلّ رحلاته بهدف العلم ونشر الوعي النّهضوي المغاير لحياة الرّتابة والانتكاس.

ب: الحذف: ويقصد به «حذف فترة طويلة أو قصيرة من زمن القصة وعدم التطرق لما يجري فيها من وقائع وأحداث فلم يذكر عنها السرد شيئا، يحذف الحذف عندما يسكت السرد عن جزء من القصة أو يشير إليه فقط بعبارات زمنية تدل على موضع الحذف من قبل»[3]، فيعمل على حذف مدة زمنية معيّنة دون التطرّق إلى وقائعها.

ولما نتمعّن في (المقامة الإبراهيميّة) نجد بأنّ الأديب قد اعتمد هذه التّقنية وذلك في قوله: «وبعد بضعة أمتار مسير»[4]، فلم يصرّح الأديب ما جرى بين الراوي المتمثّل في البشير السيحمداني والشيخ الكبير من تبادل للكلام أو حتى الأماكن التي مرّوا بها، مع العلم أنّ هذا المسير كان في بضعة أمتار، مما يدلّ أنّه يستحيل أن تنعدم المحادثة والكلام خلال هذه الرّحلة البسيطة.

2: تبطيء السرد: ينتج عن توظيف تقنيات زمنية تؤدي إلى إبطاء إيقاع السرد وتعطيل وتيرته، أهمها المشهد والوقفة[5].

(1). جيرار جنيت، خطاب الحكاية، مرجع سابق، ص109.
(2). البشير بوكثير، مقامات بشائرية، مصدر سابق، ص15-16.
(3). محمد بوعزة، تحليل النص السردي، ص94.
(4). البشير بوكثير، مقامات بشائرية، مصدر سابق، ص14.
(5). محمد بوعزة، تحليل النص السردي مرجع سابق، ص93.

أ: المشهد: ونعني به «تقنية المقطع الحواري حيث يتوقّف السّرد ويسند السارد الكلام للشخصيات فتتكلّم بلسانها وتتحاور فيما بينها مباشرة، دون تدخّل السّارد أو وساطة في هذه الحالة يسمّى السّرد بالسّرد المشهدي (récit sémique)»[1]، فهو يعتمد بدرجة كبيرة على الحوار.

فلمّا نتوجه إلى (المقامة الإبراهيميّة) نجد بأنّ الأديب قد اعتمد هذه التّقنية من تقنيات تبطيء السّرد ويظهر لنا ذلك جليّا من خلال مقاطع الحوار التي دارت بين الراوي والشيخ الكبير، والتي نعرضها على النّحو التّالي: «قلت يا شيخ: لقد بلّت نفحاته وشوارده اللغوية ما في جوانحي من الصدى... قال: هل أزيدك يا رمز البشائر ما كتب جدّك في البصائر؟

قلت يا شيخي الجليل: وهل قال شيئا في فلسطين وغزة والجليل؟

قال: لقد قال الكثير، ومن أروع ما قال: "أيها العرب، أيها المسلمون! إنّ فلسطين وديعة "محمد" عندنا، وأمانة "عمر" في ذمّتنا...

قلت يا شيخي الفاضل: وهل قال شيئا في الشباب؟

قال: جلّ كلامه وجّهه للشباب، فهو ذخر الوطن بلا ارتياب...

قال: يا ولدي البشير...

قلت: إيه والله يا جد، لن أخون العهد...

قال: هكذا عهدي بك يا بشير الخير...»[2]، فهذا المشهد الحواري وإن دلّ على شيء إنّما يدلّ على تعطّش الراوي لمعرفة كلّ ما يتعلّق بالشيخ والعلامة الإبراهيمي، فهو الجدّ والمربي والمصلح والمعلّم كما أسماه الأديب وحتّى الراوي والشّيخ الكبير، فلطالما كان يقول للسائل: "كان جدّك، واحفظ عن جدّك..."، وكان هذا المقطع المشهدي هو الطريقة الوحيدة التي مكّنت الرّاوي من معرفة ما قام به جدّه عن طريق الواسطة المباشرة؛ أي عن طريق الشّخص الذي كان يعرف كل ما تعلّق بالإبراهيمي على غرار ما يُقرأ في الكتب.

ب: الوقفة: وهي «ما يحدث من توقفات وتعليق السرد، بسبب لجوء السارد إلى الوصف والخواطر والتأملات، فالوصف يتضمّن انقطاع وتوقف السرد لفترة من الزمن»[3]،

(1). محمد بوعزة، تحليل النص السردي، مرجع سابق، ص95.

(2). البشير بوكثير، مقامات بشائرية، مصدر سابق، ص20-21.

(3). محمد بوعزة، تحليل النص السّردي، مرجع سابق، ص93

بحيث تُعتمد هذه التقنية حينما يتوقف السّرد ويبرز الوصف، كوصف الشخصيات والأماكن مثلا.

ففي (المقامة الإبراهيمية) تجلّت هذه التّقنية بكثرة، ومن ذلك نذكر: «وصلت القرية والمحلّة، فما أحلى الطلّة على قرية سيدي عبد الله، بالخرزة القبلية تزول الأسقام وتختفي العلّة، وقد اكتست أبهى حلّة، وتبرقشت ريحانة وفلّة، وفاضت مثل مزنة منهلّة.

وصلت الخرزة القبلية فوجدتها تتلألأ بالحلل السّندسية، وتسطع بالأنوار السنية، والأزهار الشذية، وترفل في فرش خضراء ندية، وآكام غضّة طرية، تتمايل الحسناء البهية، في ليلة قمرية»[1]، فالغاية من هذا الوصف هو التّعريف والتّقديم بالمنطقة التي تربى وترعرع وتعلّم فيها العلامة محمد البشير الإبراهيمي كلّ علومه من طرف الشّيوخ وبعدها من طرف عمّه، ولهذا أولاها الأديب أهمّية وأعطاها وصفا دقيقا يليق بها، فهي معدن الوضاءة ومنبت العلم والعلماء.

وحينما انتقل الشّيخ الكبير إلى وصف العلامة الفذ قال: «هو محمد البشير، العالم الكبير، والجهبذ النّحرير، والأديب اللّبيب، والشّاعر الأريب، هو من أشرف القوم أصلا ومحتدا، وصدرا وموردا، ونجما وفرقدا، كان غصّة في حلوق العدى، أذاقهم السّم الزّعاف بل الردى، وكان للصّحب غيثا وموردا، ومنهلا للجود والندى، ما غرّد طائر أو شدا...»[2]، وهنا يظهر لنا الوصف الشّخصي بنوعيه (الخُلقي والخَلقي)، فقد دفعته أخلاقه وإيمانه إلى أن يكون قدوة يقتدى بها في جميع المجالات (الدينية، الإصلاحية، التعليمية...)، فكان للعربية شاعرا وأديبا، وللإسلام معلّما وخطيبا، وللعدو مخيفا ومريبا، ومن خلال هذا الوصف الذي قدّمته المقامة لهذا الرّجل نستنتج بأنّ الرّجل كان وسيبقى ذا مكانة عالية مهما مرّت الأزمنة وذهب جيل وأتى جيل آخر، فالرّجال بأعمالهم يُعرفون وتبقى ذكراهم خالدة مهما كانت الظروف.

بنية المكان:

يعتبر المكان عنصرا تلازميا في تشكيل البنية السردية، وطرفا أساسيا في المعادلة الاكتمالية لمقتضيات النص، فهو في السرد بمثابة العمود الفقري الذي يربط أجزاء العمل بعضها ببعض، والخلفية التي قد تشكّل الرؤيا التي قام لأجلها المنجز الإبداعي، فهو يتخذ أشكالا ويتضمّن معاني عديدة بل إنّه قد يكون، في بعض الأحيان، الهدف من وجود العمل

(1). البشير بوكثير، مقامات بشائرية، ص14

(2). المصدر نفسه، ص15

كلّه، والمكان ليس أرضا أو سماء ولكنّه تشبيك معقّد من الهوية والانتماء والوعي الفردي والجماعي، هو الرمز السّردي الذي لا تنضب دلالاته إلا بانتهاء العمل، فيتخطى سلبيته وموقعه السطحي الذي هو فيه مجرد ديكور للأحداث إلى مستوى أكثر عمقا[1].

أمّا إذا تطرّقنا إلى المكان الأدبي، فيراه غاستون باشلار بأنّه «المكان الملموس بواسطة الخيال، لن يظل محايدا خاضعا لقياسات وتقسيم مساحة الأراضي، لقد عيش فيه بشكل وضعي، بل بكلّ ما للمكان من تحيّز، وهو شكل خاص في الغالب مركز اجتذاب دائم وذلك لأنه يركّز الوجود في حدود تحميه»[2]، فهو ليس مجالا هندسيا تضبط حدوده أبعاد وقياسات خاضعة لحسابات دقيقة، وإنّما على مستوى التّخيّل بملامحه وظلاله، وهو مركز اجتذاب دائم لِما له من أبعاد تحميه.

فمن خلال الأحداث التي جرت في (المقامة الإبراهيمية)، منذ انطلاق الراوي من بيته إلى غاية وصوله إلى قرية سيدي عبد الله، فإنّنا نميّز بين نوعين من المكان وهما:

أوّلا: المدينة: إن المدينة «مسكن الإنسان الطبيعي أوجدها الناس، لتكون في خدمتهم وعلى مستواهم، أوجدوها لتساعدهم في العيش وتطمئنهم وتحميهم من العالم المناوئ، ومن أنفسهم، وتختلف المدن عن بعضها البعض، فلكلّ مدينة موقعها الجغرافي، وتتميّز كلّ مدينة بعاداتها وتقاليدها»[3]، وبهذا فإنّ فضاء المدينة من الفضاءات المفتوحة التي تتّسم بالتطوّر، لكن راوي هذه المقامة يراها عكس ذلك، فكانت تمثّل له فضاءً يشبه السّجن، لذلك لجأ إلى القرية، وبهذا يمكن القول: بأنّه يمكن تقديم موضوع المدينة في تمثيلات نمطية تعكس مفاهيم الانغلاق والانفتاح، وترسم التباعد بين عالمين عبر ثنائية المدينة/ القرية، فهي تقدّم موضوعات تثير قضايا الاغتراب في المدينة، وضياع القروي في متاهاتها، فهي تشار إلى ذلك الفارق الاجتماعي والاقتصادي بينها وبين القرية، ونلمح صورة المدينة في قول الراوي: «شدّني الحنين إلى مرابع قبيلة شيخي الأمين...»[4]، فأراد أن يزور القرية التي يرى فيها الهدوء

(1). عبد الله بن صفية، مدخل إلى السرديات العربية الحديثة والمعاصرة، ط1، دار الباحث للنّشر والإشهار، برج بوعريريج، الجزائر، 2020، ص87.

(2). غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1984، ص60.

(3). مهدي عبيدي، جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا، (حكاية بحار الدقل المرفأ البعيد)، (دط)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011، ص96.

(4). البشير بوكثير، مقامات بشائرية، مصدر سابق، ص14

والهواء النقي بعكس المدينة التي يراها ذات صخب وفوضى، لا يُعرَفُ لها نهار من ليل، والمدينة من هذا المنظور تمثّل مكانا تكثر فيه المخاطر، وبالتالي هي عالم الانفصال بالنسبة للراوي، ومكانا هامشيا بالنسبة للذي يأتي من القرية، فأضحت بذلك مكانا لا اختياريا، وإنما أجبرتهم الظروف على أن يقتحموها ويقيمون فيها.

ثانيا: القرية: تحضر القرية كبنية مكانية في النصوص السردية، فهي «تعتبر من الولادات البكرية للأمكنة، شأنها شأن رحم الأم، وبيت الطفولة»[1]، إنّها فضاء من الفضاءات التي تلجأ إليها الكثير من النصوص السّردية، فهي تحمل طابع الألفة والاختيار بالنسبة لشخصيات العمل السّردي، فبالرغم من أنّها قليلة الإمكانيات الاقتصادية وغيرها إلا أنّها تمثل مركزا بالنسبة للقاطنين بها، فمنها الانطلاقة وإليها العودة.

وتعدّ أغلب أحداث المقامة قد وقعت فيها، فقد أولى الأديب اهتماما واضحا من خلال الوصف الذي قدّمه لها، ومن ذلك نجد: «وصلت القرية والمحلّة، فما أحلى الطلّة على قرية "سيدي عبد الله" بالخرزة القبلية تزول الأسقام وتختفي العلّة، وقد اكتست أبهى حلّة، وتبرقشت ريحانة وفلّة، وفاضت مثل مزنة منهلّة»[2]، فبمجرّد زيارتك لفضاء القرية فإنّك تشعر شعورا ليس له مثيل، بحيث تزول عنك تلك الاختناقات الصدرية التي كانت تتملّكك داخل المدينة، كما أنّك تتمتّع بالجو السّاحر الذي يغنيك عن ألف مكان في المدينة، كيف لا تشعر بهذا الشيء وأنت تزور مهد العلم والعلماء، قرية صغيرة بحجمها كبيرة بأبطالها، قرية العلامة وشيخ الأساتذة والمربين والمصلحين، إنّها قرية سيدي عبد الله التي ولد من رحمها العلامة الفذ البشير الإبراهيمي.

ومن خلال هذه الأمكنة الواردة في المقامة، يمكن القول: بأنّ القائم بالسرد لا يشيّد أمكنة عمله على الصدفة، بل يقيمها على نحوٍ مخصوص ليحيل بها إلى ما يريده من دلالات، فإنّه يقوم بتوزيعها بما يتوافق ووضعيات الشخصيات في العمل، ومع منشودها الذي تريده أن يتحقّق، والنهايات التي آلت أو ستؤول إليها، ممّا يعدّد الأمكنة بحسب عدد هذه الشّخصيات وينوّعها بتنوّع منشودها[3].

(1). شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994، ص101

(2). البشير بوكثير، مقامات بشائرية، مصدر سابق، ص14

(3). عبد الله بن صفية، مدخل إلى السرديات العربية الحديثة والمعاصرة، مرجع سابق، ص88

خاتمة:

بعد هذه الجولة العلمية التي قضيناها في رحاب المقامة الجزائرية الحديثة، وبالتحديد في (مقامات بشائرية) لصاحبها البشير بوكثير، والتي احتوت بداخلها مقامات متفرّدة من الناحية المضمونية وحتى الشّكلية في البعض منها، ومن هذه المقامات تمّ التّركيز على المقامة الإبراهيمية ودراستها من ناحية الأبنية السّردية واكتشاف مواطن الجمال الفني فيها.

ومن خلال ذلك يمكن القول: بأنّ آليات اشتغال البنية السّردية كان لها حضورها البارز داخل المقامة، ممّا جعل هذه الأخيرة تزخر بالبناء السّردي من البداية إلى النّهاية، ناهيك إلى أنّ كلّ آلية من هذه الآليات كانت لها جمالية حضورها داخل المتن الحكائي، ومن هنا يمكن الإقرار بأنّ هذه المقامات تعتبر نموذجا سرديا من نماذج التّجريب الذي أضحى لا يفارق السردانيين في الأعمال المختلفة.

وهذا ما يجعل هذه المدوّنة السّردية قائمة بذاتها، ولها فرادتها الأدبية التي تعمل على انتشارها في المكان؛ وذلك من خلال معالجتها للقضايا الاجتماعية المختلفة كالفقر، وجوانب سياسية وأخرى اقتصادية وثقافية (...) وبذلك ترقى إلى أن تكون مصدرا أساسيا في الدّراسات الأكاديمية بجوانبها المختلفة، ومن هنا يمكن عرض جملة من التّوصيات منها:

. ضرورة الالتفات إلى الأعلام الجزائرية المغمورة ومحاولة التّعريف بمنجزاتها الأدبية.
. الإقبال على مدوّنة (مقامات بشائرية) بالدّراسة والتّحليل النّقدي.
. التّركيز على المنجز السّردي الجزائري دون غيره من السّرود في الأعمال العلمية المختلفة.
. الاهتمام بالمدوّنات الجزائرية ذات البعد الإنساني.
. الاشتغال على الأعمال السّردية وفق المقاربة السّردية، وذلك بغية فكّ المغاليق عن النّصوص واكتشاف مدى الصراع الإيديولوجي بين الشّخصيات في زمكانية معيّنة.

المراجع:

- البشير بوكثير، مقامات بشائرية، (دط)، دار خيال للنّشر والتّرجمة، برج بوعريريج، الجزائر، 2022.
- جيرار جنيت، خطاب الحكاية (بحث في المنهج)، تر: محمد معتصم وآخرون، ط2، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997.

- مهدي عبيدي، جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا، (حكاية بحار الدقل المرفأ البعيد)، (دط)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011.
- حميد لحميداني، بنية النّص السردي من منظور النقد الأدبي، ط2، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2000.
- غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1984.
- عبد الرحمن العكيمي، الاستشراف في النص (دراسة نقدية في استشراف المستقبل)، ط1، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2010.
- فيليب هامون، سيميولوجية الشّخصيات الروائية، تر: السعيد بن كراد، (دط)، دار الكلام، الرباط، المغرب، 1990.
- شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994.
- يان مانفريد، علم السرد (مدخل إلى نظرية السرد)، تر: أماني بورحمة، ط1، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، 2011.
- الشريف حبيلة، بنية الخطاب الروائي (دراسة في رواية نجيب الكيلاني)، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010.
- عبد الكريم جدري، التّقنية المسرحية، ط2، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002.
- عبد الله بن صفية، مدخل إلى السرديات العربية الحديثة والمعاصرة، ط1، دار الباحث للنّشر والإشهار، برج بوعريريج، الجزائر، 2020.
- محمد بوعزة، تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010.
- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، ط1، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998.